

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— V —

الدراسة المصرية — الحياة الأخرى

اعتقد المصريون منذ أقدم عصورهم بخلود الروح وبأن هناك حياة آخرة يجازى فيها المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته . والمنطق الذى استندوا إليه فى هذه العقيدة ، هو أن هذه الحياة الدنيا مزيج من الخيرات والشرو ، وأن المشاهد أن هذه الفترة القصيرة التى يعيشها الإنسان على الأرض ، ليست جديرة بتحقيق مكافآت الاختيار ، ولا عقوبات الأشرار . وإذن فالمطلق يقفنا أمام أمرين لا ثالث لهما ، وهما : إما أن تكون هناك حياة أخرى يوفى فيها الاختيار والأشرار جزاء أعمالهم فى دقة وعدالة ، وإما أن ينتهى كل شئ بمجرد انتهاء هذه الحياة . وفى هذه الحالة الأخيرة لا يتحقق تقدير الفضيلة والذيلة ، ولا يمتاز الخير عن الشر بأية ميزة . وبذلك تنتفى عن الإله صفة العدالة ، ومتى انتفت عنه هذه الصفة لحقه النقص ، ومتى لحقه النقص فقد انهارت ألوهيته من أساسها ، وإذن فالحياة الأخرى من لوازم الألوهية نفسها

أما طريق معرفة الخير من الشرير فهى أن يؤتى بأعمال كل منهما الدنيوية المقيدة فى سجل أمين لم يدع منها كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ، ثم يجلس المسئول أمام محكمة أوزيريس ، الذى نكتفى أن نسوق إليك فى وصفها نص ما كتبه الأستاذ بريستيد : « وتكون محكمة أوزيريس فى عقيدة القوم من اثنين وأربعين قاضياً يجلسون أمام المعبود كالزبانية يمثل كل منهم قسماً من أقسام مصر ، فإذا دخل المتوفى أمام المحكمة وأنكر أمام كل قاضٍ إنماً من آثامه ، يوزن قلبه فى ميزان مقابل ريشة العدالة ، للتأكد من صدق قوله ، أما الإثام التى

تبتزأ منها الميت أمام محكمة أوزيريس فهى بعينها الآثام المستهجنة فى عهدنا هذا . وهاك بياناً موجزاً لتلك الآثام : السرقة ، والقتل ، والاختلاس (وبالأخص السلب) ، والكذب ، والخداع ، وشهادة الزور ، والرياء والتنازب باللقاب والتجسس ، وعدم الاعتدال فى الأمور الجنسية ، وامتهان كرامة المعبودات أو الأموات كالكفر بهم ، وسرقة أمتعة الموتى . ومن هذه القائمة يستدل على عظم الرادع النفسى عند المصريين وقتئذ استنكاراً للنكرات . وعليه فالمصريون هم أول قوم اعتقدوا رتب الحياة الآخروية على الحياة الدنيوية . ويرجع هذا الاعتقاد فى الحقيقة إلى المملكة القديمة . والغريب أن هذه العقيدة انحصرت فى المصريين أكثر من ألف سنة فى حين أن البابليين والاسرائيليين اعتقدوا أن انتقال الموتى عمراً إلى سقر المعرفة باسم « شول » واعتقد المصريون أن الأموات الذين تحكم عليهم محكمة أوزيريس بالأجرام يعرضون للجوع والعطش ويحجزون فى أماكن مظلمة لا يبصرون فيها ضوء الشمس . وفى المحكمة طريق أخرى للقصاص ، منها حيوان بشع له رأس تمساح ومقدم أسد ومؤخر دب البحر يفترس المجرمين الآثمين . وأخذت آراء القوم فى عهد المملكة الوسطى تحوم حول تطهير النفس من المعاصى والمظاهر القماسة للبراءة بعد الوفاة وتجنباً للعقاب الآليم ، فأصبحت ترى الكثير من نقوش شواهد القبور شديدة الشبه بما ألعنا إليه فى عهد المملكة القديمة ، وهى تلخص فى أن الميت يطعم الجوعان ويروى الظمآن ويكسو العريان وينقل فى سفينته من ليس له سفينة . وجاء على بعض الشواهد أن المتوفى كان أبا البقيم وزوج المرأة ومولجاً الذى لا مالجاً له مما أشرنا إليه حين تكلمنا على كرم وسخاء حكام الأقسام والشخص الذى تبرئه الحكمة أوزيريس تلقبه بالرجل الطاهر العادل أو صادق القول أو المتصر ،^(١)

فإذا فرغ « توت » - وهو الذى تصوره لنا الآثار حاملاً الميزان فى يده - من مهمته أمر بهذا المسئول فيساق إلى ذلك الصراط الخوف الذى مد فوق الجحيم والذى إذا اجتازه

(١) راجع صفحتي ١١٢ و ١١٣ من كتاب تاريخ مصر من أقدم عصورها للإستاذ بريستيد .

ليقبلها أوزيريس فيضمن أهل الميت هذا القبول لتوفاهم
الرحمة والغفران (١)

رأى بعض الباحثين الغربيين أن هذه العقائد الفرعونية
من : بعث وحشر ووزن وثواب وعقاب ونعيم ، بعضه مادي
وبعضه معنوي ، وعذاب يتفاوت بتفاوت درجات الآثام
والشرور ، وأن تلك الطقوس الوثنية من : غسل الميت
وتكفينه وتلقينه ودفنه ونحر الضحايا بمناسبة موته ، كل هذا
يوجد بحذافيره في بعض الديانات التي تدعى لنفسها السماوية
فرموا هذه الديانات الأخيرة باستقامتها عقائدها وطقوسها
من تلك الديانة الوثنية لامن عند الله كما تدعى

ولست أدري كيف يستسيغ أولئك الباحثون هذا المنطق
العجيب مع اعترافهم بالجهل التام للأصول الأولية في الديانة
المصرية ؛ وما المانع من أن يكون مصدر هذه الأصول
الجهولة لديهم هو : السماء ، وأن يكون التوثن والتعدد عارضين
لها بعد التأليه والتوحيد ؟ وفي هذه الحالة يكون من الطبيعي
أن تتفق مع الديانات السماوية في جميع العقائد والطقوس
التي لم ينلها التحريف ؛ ثم ما المانع كذلك من أن تكون تلك
الطقوس مستحدثة في الديانة المصرية لا يصعد مبدؤها على
سلم التاريخ إلا إلى العهود التي اختلط فيها المصريون بالساميين
واقتبسوا منهم بعض طقوسهم الدينية ؟ هذه كلها احتمالات
جائزة الوقوع ، ولكن الذي لا شك فيه هو أن اتفاق ديانة
وثنية مع أخرى سماوية لا يقوم برهاناً على أخذ الثانية من
الأولى ، ولا يصح الاستناد إليه في الحيلولة بينها وبين مساويتها

الأمم

آمن المصريون — كما قدمنا — منذ عهود تقصر عن
إدراكها مجهودات التاريخ بأن لهذه الأكوام منشأاً أو منشئين
خلقوها ونظموها وهم يتولون تصريف شؤونها بحكمة واقتدار
وعدالة وإنصاف . ولأمر ما ، اقتنع المصريون منذ أقدم
عصورهم بأن هؤلاء الآلهة المتصرفين في الأكوام اختاروا
في مبدأ الدنيا عرش مصر واتخذوه مقراً لهم يصدر من
فوقه أحكامهم وأوامرهم النافذة التي لا يجرؤ أي فرد من أفراد

الشخص نجا وارتقى إلى جوار الآلهة والفراغة الأبرار ، وإذا
هوى من فوقه سقط في وادٍ سحيق ممتلئ بالآفاعي والحيات
التي تتولى تعذيبه بقسوة حتى ينال قسطه من الجزاء
ومن الغريب أن المصريين مع إيمانهم بهذه العدالة الصارمة
في الحساب ووزن الأعمال كانوا يعتقدون أن تلاوة الرقي
والتعاويذ وكتابتها على تابوت الميت أو على حوائط قبره
تستطيع أن تنفذه أمام محكمة أوزيريس فتزبد في نعيمه
وتخفف من عذابه ، وهذا هو معنى قول المحدثين : « الرحمة
فوق العدل » . وقد كتبت هذه التعاويذ في كتاب « الموتى »
وكتاب توت الذي ألعنا إليه آنفاً .

عقائد وطقوس دينية

اعتقد المصريون — كما أسلفنا — بالبعث والحشر والحساب
على الأعمال والميزان والصراط والنعيم والجحيم ، وآمنوا كذلك
بأن هذا النعيم درجات ، أدناها المنع المادية ، وأعلاها الذهاب
إلى جوار الآلهة أو الصعود بوساطة السلم الإلهي من مملكة
الموتى إلى مملكة « رع » حيث يقم الصالحون والمقربون مقاماً
أبدياً لا مرض فيه ولا تعب ولا موت ولا فنا . واعتقدوا
أن في الجحيم كذلك درجات بعضها خفيف وبعضها قاس ،
وأن بها ثماين وحيات وتينات تتولى تعذيب الآثمين بقدر
ما يرسم لها إله الجحيم .

هذا كله في الآخرة ، أما في الدنيا فن طقوسهم الدينية أنه
إذا مات الميت يجب أن يغسل بالماء النقي وأن يكفن ويدفن
بعد أن يلقته الكاهن ما كانوا يسمونه بالرق المنجية التي تحميه
في القبر من الأرواح الشريرة وتكفل له في الآخرة رحمة الآلهة ،
وأن تكتب تعاويذه توت ، على تابوته وجدران قبره إن
كان من ذوى الحثيات كأن يكون ملكاً أو أميراً أو كاهناً
أو وزيراً أو موظفاً كبيراً أو أديباً أو طبيباً مثلاً ، أما إن
كان من أبناء الطبقات الدنيا ، فإن هذه التعاويذ تكتب على
كفنه أو في ورقة بردية تدفن معه .

ومن هذه الطقوس أيضاً تضحية الحيوانات على قبر المائت
ووضع بعض لحومها مع الخبز والماء والفاكهة والتبذ في
داخل القبر ، وأن يتولى تقديم هذه الضحايا أحد الكهنة ،

(١) راجع رسالتنا « الآثار الحية لمصر النابتة » صفحات ٢٢٨ إلى ٢٤٤

« وكتاب القصص المصرية » صفحة ١٠

الوجود على التمرد عليها أو عدم الانصياع لها ؛ ثم عن هؤلاء الآلهة أن يغادروا عرش مصر الى عرش السماء ففعلوا ، ولكن بعد أن استخلفوا على هذا العرش العزيز أبناءهم وأحفادهم الفراعنة العظماء وزودوهم بكل ما يحتاجون إليه في حكمهم للبلاد وسياستهم للدولة وقيادتهم لجميع أنحاء النظم الاجتماعية والأخلاقية التي لا تسير بالبلاد إلا الى التقدم وال عمران ؛ وأن أولئك الآلهة سيلاحظون الحاكمين والمحكومين بعنايتهم ويكلؤونهم بعين رعايتهم ماداموا يقومون بواجباتهم نحو أولئك الآلهة المحسنين . وكان هذا القيام بالواجب يتلخص في الشعائر الدينية وفي الإتيان بالفضائل الأخلاقية ، وأولها الولاء للعرش والعدالة والصدق والأمانة والرحمة والإحسان وأشباهاها ولا ريب أن هذه الأسطورة - على بطلانها - كانت أقوى العوامل وأهم الأسباب في رقي مصر العمراني ، وتماسكها الاجتماعي وجلالها السياسي ، وسموها الأخلاقي ، وأطراد تقدمها في العلم والأدب والفنون الجميلة والصناعات النافعة . ومن الطبيعي أن الأمة التي تعتقد أن نجاحها في الدنيا وفوزها في الآخرة مترتبان على الفضائل لا تألو جهداً في أن تكون أمة فاضلة خيرة ، وهذا هو الذي حدث بالفعل ، فقد انتشرت الفضائل في وادي النيل انتشاراً قوياً وعظم الخاصة والعامة معتقياً . وكافأهم الملوك على حسن سلوكهم بجلال النعم وأعظم المنح كما ضرب على الرذائل والشروع بأيد من حديد ، وأصبح أفراد هذه الأمة جميعهم يفخرون بالفضائل ويتبرأون من الرذائل لافرق في ذلك بين فرعون على جلاله وبين الفلاح الصغير أو العامل الحقير . وإليك شيئاً من نصوص تصوير هذا العصر الغابر ، ومقدار تمسكه بالفضائل وأثر ذلك التمسك في حياته : « واعتقد القوم أن الوصول إلى حقول الخيرات الآخروية يكون بالإهتمام بالشعائر الدينية والاعتناء بها ، وبتوالي الأيام اعتقد الناس أن النعم الآخروية يكافأ به من يحافظ على طهارة الذمة والشرف والأعمال الصالحة في الدنيا . من ذلك ماورد في مقبرة أحد أمراء الأسرة الخامسة مترجماً : « لقد شيدت مقبرتي بغاية العدل والحق فلا شيء فيها يستحقه غيري ، وأنا لم أؤذ أي شخص . » وماورد أيضاً من النقوش على جدر مقبرة لأحد أبناء تلك العصور مترجماً :

« أنا لم أعاقب قط في حياتي أمام رجال الحكومة ولم أسرق شيئاً من غيري ؛ بل فعلت كل ما يرضى غيري . » ولم تقتصر نقوش مقابر تلك العصور على إنكار السيئات ، بل شملت أيضاً فعل الخيرات كما ورد على جدار مقبرة وجيه في الأسرة الخامسة مترجماً : « كنت أقدم الخبز لفقراء إقليمي ، وأكسو عراني ، ولم أؤذ أحداً طمعاً في أملا كه حتى اشتكاني إلى معبود بلده ، ولم أسمح لأضعيف أن يخشى بأس قوتي فيتظلم من ذلك للآلهة . » (١) وما ورد في موضع آخر تعزيزاً لما قدمناه مايلي : « ومنه يتضح أن القوم وقتئذ أخذوا يعتقدون بوجود محاكمة في الآخرة أمام (أوزيريس) وأن هذه العقيدة أحدثت تأثيراً أدبياً عظيماً في نفوس المصريين ، فإنهم وإن كانوا حقيقة منذ قديم الزمن ذوي ضمائر ونفوس رادعة إلا أنهم كانوا في احتياج إلى زجر قوتي كالوارد في عقيدة أوزيريس . لذلك نشاهد بين نقوش دهاليز أهرام أمراء الأسرتين : الخامسة والسادسة تحذير كل من يستولى على مقابرهم بأنه سيحكم على أفعاله أمام المعبود الكبير ، كما ورد في مقبرة أخرى ما يشير إلى تجنب الكذب كلية رغبة في رضا المعبود وقت الحساب . كل هذه الحقائق وجدت مدونة بين أقدم نصوص الموتى المروقة الآن بمصر (٢) وما لا شك فيه أن اتصاف المصريين بالفضائل والخيرات يرجع إلى أوائل عهدهم بالنقل والتفكير . ونحن بهذه المناسبة لا نوافق الأستاذ بريستيد ، على قوله : إن الواجب الديني كان في أول أمره مقصوراً على الشعائر ثم تحول بعد ذلك إلى تناول الفضائل . فهذا القول غير صحيح البتة ، لأن المصريين لم يعرفوا الحياة يوماً واحداً بدون اعتناق الفضائل والأخلاق وإيمانهم بأنها أوامر الآلهة كانوا ينشرونها بين الناس إبان اتخاذهم عرش مصر مقراً . أي قبل صعودهم إلى السماء في الأزمان السحيقة . ولو كان قول بريستيد صحيحاً للزم أن يكون الآلهة قد شغلوا زمناً عن الأمر بالفضائل ولم يهتموا إلا بشعائهم الدينية ، وهذا منقوص لشئونهم ، حاط بعظمتهم بما لم يشعر به المصريون يوماً واحداً

(يتبع)

نجر غريب

(١) انظر صفحة ٤٣ من كتاب « تاريخ مصر من أقدم عصورها » د مازي بريستيد . (٢) راجع صفحتي ٤٣ و ٤٤ من الكتاب المذكور